في السياسة العامة

obeikandl.com

obeikandl.com

قلنا فى الفصل السابق ان السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التى انقضت بعد وفاة النبى عليه السلام . « لأنها فى حدة نفسها ورفعة مكانها لاتقبل الفراغ »

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد المامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذى يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التى نشط بها المزاج العصبى ولم يقعد بها الترهل والاعياء

وأما رفعة مكانها فهى أحرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلا فى بيئتها ، وهى أرفع بيئة بين قومها

نشأت عزيزة فى آلها وذويها ، عزيزة فى بيت أبيها ، عزيزة فى أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الاغضاء عنها

هذه حقيقة لو التفت لها ولاة الامور كما ينبغى فى حينها

لسلمت السياسة العامة فى ذلك الحين من جرائر الخطأ الذى وقعت فيه

ولا بدع فى تقرير تلك الحقيقة ولا فى تعظيم خطرها والتنبيه الى تبعاتها

فما من دولة قط الا قد اتخذت لها أصولا مرعية فى سياسة اقطابها ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن فى الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار فى السياسة العامة، أو السياسة العليا على التخصيص، وهى اصول لم تغفل مرة الا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له فى توجيه الأمور

وقد كانت « اصول » السياسة العليا فى معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تظل بالمكان الذى يستفاد فيه من عملها وعلمها وأن تعرف لها مهمتها الكبرى فى تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الاسلامى كما يؤخذ من أحاديث النبى ومأثوراته وعاداته ، فى معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملا خليقا أن يشغل أيام السيدة عائشة على احسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الاسلامية

كان هذا واجبا لها وجوب الحق ووجوب المصلحة ووجوب السياسة

وكان هذا الواجب « أصلا مرعيا » من أصول السياسة العليا أيام أبى بكر وعمر سواء قصدا اليه أو ذهبا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور ..

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها الى حكومة عثمان ، وبعضها الى طوارىء الزمن ، وبعضها الى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها اليه دوافع الأحوال

جاء الخطأ الأول فى هذه السياسة من القائمين بالأمر فى حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيبا حقا لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو اليه ضرورة من ضرورات الدولة ، ونعنى به نقص العطاء الذى كان مقدورا للسيدة عائشة فى عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل فى تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق

ان نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغا عندها وعند المسلمين والمسلمات اذا دعت اليه حاجة فى خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح اليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التى يحار فيها الاحصاء ، وغنائم افريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ؛ فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ،

وغير ذلك من القطائع والاعطية التى يخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب

ان الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال او يبذله فى ترف او يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها انفقت المال فى غير الكفاف من الرزق والاحسان الى المعوزين ، وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الاجلاء وان كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف ـ وهو مثل من امثلة عدة ـ وافر الثراء على عهد النبى عظيم السخاء فى خدمة الدين . ودخلت له عير الى المدينة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها فى بيت عائشة ، فما نجا به من لومها الا انه ذهب اليها يشهدها أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع فى ادخار ، ولكنه كان غضبا عادلا من غضاضة لا حاجة اليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح اليها النفس بتعليل مقبول

وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه ، وكثر القيل والقال فى مخالفتهم للدين وتوسعهم فى اقتناء الدور والحطام

ومثل من الأمثلة العـدة فى هذا الباب تولية الوليد بن عقبة أخى عثمان لأمه خلفا لسعد بن ابى وقاص على الكوفة وهو من اعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين

وكان الوليد متهما بالخمر ، وشاع فى المدينة انه ام الناس يوما فى صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت اليهم وقال : هل ازيدكم ؟ فانى أجد فى نفسى نشاطا !

ولم يكن عجيبا أن يلجأ الشاكون منه الى بيت عائشـة فيمن لجأوا اليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وانما لجأوا اليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به اهل مصره . فقـال لهم : أكلما غضب رجـل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبى وعائشة فيه

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتا وكلاما فيه بعض الغلظة فقال مغضبا : اما يجـد مراق اهل العـراق وفساقهم ملجأ الا بيت عائشـة . فسـمعته ، فقيل انها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ! ... وتسامع الناس

فجاءوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : احسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من اصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل اخاه »

ولم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين اليها فلما شكا الناس من والى عثمان ـ فى مصر ـ عبد الله بن أبى سرح ـ واتهموه بقتل رجل ممن شكوه الى الخليفة ، فزعت وفود المصريين الى بيت عائشة فأرسلت الى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم اليك اصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قد قتل منهم رجلا فانصفهم من عاملك

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد فى أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم الى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة على الخليفة فى انصافهم ، واثمرت غلطات الحاشية ثمرتها فى توجيه الشاكين الى طلب المزيد من حماية ام المؤمنين ، فاختاروا محمد بن ابى بكر ـ اخاها ـ ليخلف عبدالله بن ابى السرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم جليته حتى الآن ، وانما

الرأى الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين

ذلك أن الوفود القافلة الى أمصارها عثرت فى طريقها بغلام يحمل كتابا فى أنبوبة من رصاص وفيه أنه « اذا أتاك محمد بن أبى بكر ومن معه فاحتل فى قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيى فى ذلك ان شاء الله »

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الاثر فى نفوس الصحابة وفى نفس السيدة عائشة وفى نفوس الوفود المتجمعة من الامصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ فى طريق غير مأمون

▭

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الاحوال فى عهد عثمان هو الذى تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الاول من حكومة أبى بكر وعمر الى موقف الاشتراك فى السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان

بل هو الذى جعل لها مهمة تطلبها وتسعى اليها ؛ وهى مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقباها

فلولا الحمق الذى اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت

السيدة عائشة فى مكانتها العليا من الامة الاسلامية وهى تشعر انهم قد انزلوها من الرعاية والمبالاة دون منـــازل بناتهم وزوجاتهم واصحاب القرابة والزلفى لديهم

ثم تمادى الامر فلم يقبـــلوا من المسلمين أن يلوذوا ببيتها ويفزعوا الى جوارها ، ولو تنـــاولوا الامر بالرفق لاستفادوا من لياذهم بذلك البيت وفزعهم الى ذلك الجوار

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة اخيها وتنفذ الى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هـــذه الدسيسة التى يتورع عنها مثله فى بره وتقواه . فانالرجل الذى تورع عن اهراق قطرة دم فى سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ، ولا ذنب له الا ان الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما ندبوه اليهم

لكن ما الذى أصاب الجانى المدبر للدسيسة ؟ ولم نجا من العقوبة ؟ ولم لم يكشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية وان رجال الحاشية هم الذين ستروه وانقـذوه ؟ وماذا لو ان الغلام الذى كان يحمل الامر بالقتل وصل الى مصر ولم يعترضه الشاكون فى الطريق ؟ الم يكن القتل نافذا فى

محمد بن ابى بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقـــاء قد بدات بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا حكمة مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل اخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت فى خلال ذلك مسلكا تأباه السيدة عائشة من الحاكمـين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الاسراف والتهالك على الحطام

فغير عجيب ان يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وان تنادى على راس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وان تضيق ذرعا بعثمـان لانه يمضى حيث مضت تلك الحاشية فى جنفها وغلوائها

قيل انها تربصت به حتى اقبـل يخطب الناس فدلت قميص النبى ونادت : « يا معشر المسلمين ! هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد ابلى عثمان سنته »

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وامان جوارها وما يرجى من الخير فى شفاعتها الا بعد فوات كل فرصة وضياع كل امل واستعصاء كل تدبير

فلما حوصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت ام حبيبة الى داره ـ وهى زميلة للسيدة عائشة من امهات المؤمنين ـ فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها اداوة ماء

تخفيها . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : ان وصايا بنى امية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الايتام والارامل . وكانت ام حبيبـــة اموية من آل ابى سفيان ، فاجترأ الثوار عليها وقالوا : كاذبة ! وقطعوا حبل البغلة بالسيف . فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها وذهبوا بها الى بيتها

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهى على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمدا فأبى وتخلف بالمدينة

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم ــ وهو أس البلاء ــ الى جوار السيدة عائشة التى كان يغرى عثمـان بها لاحتماء الناس ببيتها ، فقـال لها : يا ام المؤمنين ! لو اقمت كان أجدر ان يراقبوا هذا الرجل . . . فقالت : اتريد أن يصنعوا بى كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعنى ؟ لا والله ولا اعبر ولا ادرى الى ما يسلم امر هؤلاء

وفى رواية اخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال فى ذلك المأزق الميئوس منه فذهب الى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الامر فقالت : قد فرغت من جهـازى وانا خارجة للحج . . . قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم انفقتـــه درهمين ! فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء فى هـذه الرواية ان تقول : « لعلك ترى أننى فى شك من صاحبك ؟

اما والله لوددت انى أطيق حمله فأطرحه فى البحر ! »

وليس اكثر ولا أغرب من الاحاديث التى نسبت الى عائشة فى خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الاحاديث وأقساها ان بعضهم سمعها تقول : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » وانها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال

ويجوز الشك بعد ذلك فى كثير من نصوص الاحاديث التى نسبت اليها بصدد هذه الفتنة . لأن بنى امية مثلوا بأخيها محمد بن أبى بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه فى جوف حمار ميت ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله فى أسواق مصر واشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه الى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفا وأهدته الى السيدة عائشة ـ فى ذلك العيد ـ وهى توصى الرسول أن يقول لها : هكذا كان شى اخيك ! فما اكلت السيدة عائشة بعدها شويا قط واقسمت لا تأكله حتى تلقى الله

فلما تسامع المسلمون بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا

للسيدة عائشة ان يشمت بها ولاة الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الامويون من جرائرها وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا الى المبالغة فى تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان فاضافوا بألسنتهم والسنة اتباعهم وصنائعهم اقاويل واباطيل تمتزج بما نسب الى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها الى موقع المبالغة والتلفيق

▭

وخليق بنا ان نزداد حذرا من هذه المبالغات على قدر اصحاب المصلحة فى قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر اصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب على : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم فى المثلة باخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون ان يبطلوا موقفها من مطالبة على بدم عثمان ، وان يثبتوا براءة على من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة فى هجمة قاتليه . فضلا عن مصلحة القاتلين انفسهم فى التعلل بهذا السند الذى يعفيهم من لوم كثير

كذلك بدات السيدة عائشة مشاركتها الاولى فىالسياسة العامة وهى الى الاضطرار اقرب منها الى الاختيار

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها اكثر من

اضطرارها ، فانها تلقت خلافة على من بدايتها بالسخط والمقاومة ، واذنت لبعض الطامحين الى الخلافة ان يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم فى خصوماتها ؛ وكان اكرم لهم ولها لو انهم جنبوها هذه الخصومة وانزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوى فى جيرتها العسكران ، فتركوا لهـا مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة الى السعى بينهم بالتوفيق

واصوب ما قيل فى هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقـال لهما : اما انت يا زبير فحوارى رسول الله ، واما انت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وارى ام المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما ؟

نعم لقد اصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذى يغنى عن كل جواب ، فما من احد يلومهما ان يوافقا السيدة عائشة فى الرأى او توافقهما فيه ، وانما الملام الذى لا محيص عنه ان يتجاوز النـداء برايها الى الخروج بها فى حومة قتال ، وهما لم يخرجا اليها بالمحارم والازواج

كانت فى طريقها الى مكة يوم لقيت ابن عباس موفدا من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينهم وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وان يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحـة بن

عبيدالله لانه « اتخذ على بيوت الاموال والخزائن مفاتيح . فان يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه »

قال لها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث ـ أى اعتزال عثمان ـ ما فزع الناس الا الى صاحبنا ... قالت : ايها عنك . لست اريد مكابرتك ولا مجادلتك

والفت نفسها فى مكة بين العثمانية والاموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان . فعن لها أن ترجع الى المدينة لتدرك الامر قبل فواته ، ولكنها سمعت فى الطريق ببيعة على فقالت فيما رواه عبيد بن أبى سلمة وهو من خوُولتها : ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك . مشيرة الى السماء والارض ، ثم صاحت بركبها : ردونى ! ردونى ! وجعلت تتوعد فى الطريق : ان تطالب بدم عثمان ... فقال لها عبيد ابن أبى سلمة : ولم ؟ والله ان أول من أمال حرفه لأنت .. ! قالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولى الاخير خير من قولى الاول »

وما لبثت فى مكة قليلا حتى تجمع فيها كل ناقم على على بن أبى طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والاموية والولاة الذين أحسوا بزوال الدولة والثراة الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد،

ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح الى الخلافة يائس من الانصار فى المدينة . فاتفقوا جميعا على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهى المطالبة بدم عثمان ، لان المطالبة به تغنيهم عن القدح فى الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع

لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان

وفى هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج الى البصرة بتلك الدعوة التى اتفقوا عليها ، واكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج اليها لولا غلبة البيئة واجتماع الاصوات من حولها على نداء واحد . فانها ما عتمت فى الطريق أن صدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتيالهم فى اقناعها بمختلف الحيل

عبروا بماء الحواب فنبحتهم كلابه ، وسألوا : اى ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحواب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : انا لله وانا اليه راجعون . انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحواب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهى تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحواب طروقا. ردونى . ردونى . ردونى . واقامت يوما وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلا من الاعراب رشوهم

فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلا يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبدالله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم على بن ابى طالب . فأذنت لهم فى المسير بعد امتناع شديد

ونعتقد أن وقفتها عند ماء الحواب لم تكن آخرة التردد من جانبها فى امر القتال . فاننا فى الواقع لم نقرأ بين اخبار وقعة الجمل المتشعبة خبرا واحدا ينم على عزمة قتال مبيتة لغرض مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبى الاسود الدؤلى حين اشخصه اليها عامل على بالبصرة ، انها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سألته : افتظن يا ابا الاسود أن احدا يقدم على قتالى ؟ وكان ابو الاسود رجلا صعب المراس فى نصرة على فأجابها : والله لتقاتلن قتالا اهونه الشديد . وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء ، وان عليا لأولى بعثمان منك وامس رحما فانهما ابناء عبد مناف

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك اتباعها واتباع عثمان ابن حنيف والى على عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة فى المربد وفى دار الرزق ، ونادى اصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد ان تورط فيه الفريقان بدار

الرزق نهارا كاملا من الصباح الى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين

ثم انفذ على بن ابى طالب رسوله القعقاع بن عمر الى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : اى امه ! ما اشخصك وما اقدمك هذه البلدة ؟ قالت : اى بنى . الاصلاح بين الناس . قال : فابعثى الى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت اليهما فجاءا . فقال لهما : انى سألت أم المؤمنين ما اقدمها فقالت الاصلاح بين الناس. فما تقولان أنتما ؟ امتابعان ام مخالفان ؟ قالا : متابعان : قال : فأخبرانى ما وجه هذا الاصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن انكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين اظهركم، وطلبتم حرقوص ابن زهير فمنعه ستة آلاف . فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم اعظم مما تراكم تكرهون ، وان انتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ... فسألته عائشة : ماذا تقول انت ؟ قال : ان هذا الامر دواؤه التسكين ... فان انتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وان انتم ابيتم الا مكابرة هذا الامر واعتسافه كانت

علامة شر وذهاب هذا المآل . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا واياكم

قالوا : قد اصبت واحسنت ، فارجع . فان قدم على وهو على مثل رايك صلح الامر . ثم أقر على وساطة رسوله واشرف القوم على الصلح ، لولا ان حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين . فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماحها الذى خرجت به من اعنة الرؤساء

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان انصارها جميعا يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوما : ما كنت فى موطن منذ عقلت الا وانا اعرف فيه امرى غير موطنى هذا . قالت : ما تريد ان تصنع ؟ قال : اريد ان ادعهم واذهب

وربما تقابل الخصمان وجها لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين تناصح الاخوان ... نادى على خصمه الزبير يوما : يا زبير ارجع . فقال : وكيف ارجع الآن وقد التقت حلقتا البطان (١) ؟ وهذا والله العار ... قال على.

(١) البطان حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير

يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار

فرجع . وأهاب به ابنه عبدالله يستثيره : احسست رايات ابن ابى طالب وعلمت أنها تحملها فتية انجاد ؟ قال : قد حلفت الا أقاتله . قال : كفر عن يمينك وقاتله

وبينما هم فى تقديم وتأخير ومشاورة ومشاورة اقبل كعب بن سور الى عائشة فقال لها : ادركى . فقد ابى القوم الا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت والبسوا هودجها الادراع . وتعالت الضجة من هنا وهناك فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . اذ كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الفلاة وافلات الأعنة من الرؤساء

ويبدو لنا من جملة الوقائع ان حملة الجمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان احد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به الى مصير معروف

والا فما يكون ذلك المصير ؟ ان اصحابها لم يريدوا بها ان يفسدوا الامر على على بن ابى طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة على ان تمت هذه الهزيمة ، وليست هى بالمركب الذلول

انما هى حملة تهويل وسعى الى المقاسمة فى الامر على

وجه من الوجوه التى اشاروا اليها قبل مفارقتهم المدينة ، فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ، ويصبح الامر شركة او « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذى عبروا به عن طلب الولاية فى بعض الاحاديث بينهم وبينه

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة فى موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الاجمال

نعم ان فهم مأساة الجمل هى وسيلتنا الى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الاخطار المنظورة من ورائها عند الهجوم عليها فنعرف النية التى جنحت بالسيدة عائشة الى الدخول فيها ، وهى كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة فى هذا السياق

والذى يبدو لنا من سلسلة الحوادث التى لخصناها فيما تقدم ان مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة الا دفعة من دفعات الحدة التى طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة على فى بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضى تمهيدها الذى رسم لها الوجهة واندفع بها على هذه الخطة دون غيرها

فمن تمهيد الحوادث الماضية ان طلحة والزبير وعليا لم

يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هى غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها

فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الاول أبيها

والزبير زوج اختها أسماء ، وابنه عبدالله ابنها الذى اختارته لكنيتها فى بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبدالله

وعلى أقرب الناس الى بيت النبى وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب الرأى الذى لا ينسى فى حديث الافك وهو نصيحته للنبى بتطليقها

ومن الحق أن نقول ان الشعور الذى تكنه السيدة عائشة لعلى من جراء هذه النصيحة شعور طبيعى لا غرابة فيه

فلا ريب أن عليا رضى الله عنه قد اخطأه التوفيق فى تلك النصيحة . اذ لم يكن من الانصاف ان تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبى وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها الا ان النبى قد ادانها وانف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحى فى زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الامر عائشة وآلها الى الاسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذى افكوا به مطعنا فى صدق الدين ونبيه ، وهذا كله الى أن الادانة بمثل تلك

الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذى قضى به الدين فى هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة فى القـــدر والثقة . فما نحسب عليا قد سها عن هذا كله وهو ينصح الى النبى بتلك النصيحة الا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبى وبيته ؛ واستكباره فى هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل

وما من أحد يجهل الشعور الذى تقابل به النســـاء نصيحة كتلك النصيحة . فأقل ما يقال انه شعور لاغرابة فيه

▭

ثم ها هى ذى مسألة الخلافة والترشيح لهـا من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ، ومن هؤلاء الصحابة على وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحـد منهم للخلافة، وقال لهم عمر يومئذ : « انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وانى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهضوا الى حجـرة عائشـــة فتشاوروا واختاروا رجلا منكم »

وكان جائزا أن يقع الاختيار فى بيت عائشة على طلحة

او الزبير لانهما وكيلان من وكلاء الشورى

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة اخرى على النحو الذى شيدته عائشة قديما فى بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

ان طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح فى راى بعضهم كالعرف الذى يجرى عليه التقليد . وليس لعلى سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فاذا كانت السيدة عائشة أميل الى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما اسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود فى طبائع الناس

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وانما اردنا تفسير شعورها على الوجه الذى لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه فى نظر العقل ولا فى نظر التاريخ

فعلى قد اخطأه التوفيق فى نصيحته

وعائشة قد اخطأها التوفيق فى مكافحته من اجل هذه النصيحة ، وان كانت لا تلام على انها كانت تتمنى الخلافة لسواه

ولكننا اذا ذكرنا هذا كان علينا ان نذكر معه ان السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتنى مت قبل يوم الجمل ، وقالت مرة : ليت كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها

وعلينا ان نذكر انها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق على رضى الله عنه ، تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة انه الصوام القوام ، وانه احب الناس الى رسول الله

وعلينا ان نذكر ان المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة : حدة فى الطبع ، ومفاجاة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعلى ، وسعى حثيث من اقرب الناس اليها واقربهم الى اقناعها

وانها مع هذا اقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ، وترددت هنالك بين اقدام واحجام ، واعتقدت ان الامر لا يفضى الى قتال ، وأصغت الى دعوة الاصلاح ودعت اليه

وهو حادث لا بد له من عبرة

وان عبرته لأحق عبر التاريخ الاسلامى بالتسجيل